﴿ حياة حافظ ابراهيم ﴾

« للاستاذ محمد بك كرد علي »

ولد حافظ ابراهيم في اليوم الرابع من شهر شباط سنة ١٨٧١ في مدينة الاسكندرية وكان والده مدير شرطة جرجا . فنشأ نشأة ابناء الموظفين ليصبح كأبيه موظفاً . وبعد ان انجز دروسه الابتدائية والثانوية في المدارس الاميرية . دخل المدرسة الحربية وخرج منها برتبة ملازم ثان في المدفعية فأرسل الى السودان في خدمة الجيش المصري .

وفي السودان تجلى استعداده للشعر ، وكان ينظمه وهو يافع للتسلية والتحلية . وعرف بين اقرانه بشدة عارضته ، وقوة حجته ، فكانوا يندبونه اذا حزبهم حازب للدفاع عنهم في المحاكم العسكرية ، فيربح القضايا ببلاغته وحضور ذهنه . ولذلك عدوه الصدر المقدّم فيهم على صغر سنه ، لما أوتيه من خفة الروح ، وجميل النادرة ، ولعطفه على لداته ، ولما خص به من الفصاحة التي لم يكتب مثلها لاحدهم .

ووقعت في السودان مؤامرة اوشبه مؤامرة في الجيش ، فكان حافظ في جملة من اتهموا بتدبيرها ، لانه كان كبش الكتيبة ، فسرّح مع من سرح من الخدمة ، وعاد الى مسقط رأسه ، آسفاً للظلم الذي ناله فأضاع مستقبله ، فرحاً بانقاذه من عيش قاسى فيه الامرّين في بلاد الزنوج من غطرسة بعض ضباط البريطانيين ، وبريء بعد حين مما اتهم به بتوسط كبير من أحبابه ، ومنح رتبة رئيس ، ثم دخل الشرطة سلك أبيه فعزفت نفسه عنها ، ولم يلبث ان غادرها لعدم ملاءمتها لنوازع نفسه .

ولقد اورثته التربية العسكرية مضاء وحزماً وسلطاناً على النفوس ، وكان مما خص به جهارة الصوت ، كأنه قائد يأمر جنده وقت التعبية والمصاف ، وكأنه الآمر الاكبر يملي ارادته على مأموريه ، ولكن بلطف شاعر ، لا بعنف آمر . واجتمعت له رفاعة الصوت الى جمال الالقاء ، فكان تأثيره عظيماً في يوم الحفل اذا انشد . وظل حافظ منذ خرج من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الخدمة في سنة ١٩٠١ الى ان عين رئيساً للقسم الادبي في دار الكتب المصرية سنة ١٩١١ يتوفر على حرس حقل الادب يزرعه ويجنيه ، وهجيراه مطالعة (كليلة ودمنة) و (العقد الفريد) و(الاغاني) يقرأوها ثم يقرأوها ثم يقرأوها ، حتى هضم مافيها وتمثله وتصفح دواوين الشعر واختار بيتاً فذاً لكل شاعر أصاب معنىً شريفاً .

وساعده الطالع فاتصل منذ كان في السودان بصلة النسبة الى الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، وكان شكا اليه بالمراسلة بثه وحزنه ، ومايلقاه من جور الدهر ، ولما عاد الى مصر القى مفتي الديار المصرية في روعه من جميل حكمته ، ومحكم تجاربه مااستعدت به نفس الشاعر الى الانتقال الى طور آخر في الشعر يجرده من اوضاعه القديمة ، ويكسوه ثوباً قشيباً ، ويكسره على المطالب الوطنية العالية ، يضرب فيه على العرق الحساس في الناس ، وكانت نفوسهم سئمت مارأت من ابتذال الشعر في الغزل والمديح ومااليهما ، وهي الى بضاعة جديدة أشوق ما كانت منها الى أطمار بالية .

وكان الرعيل الصالح الذي يلتف حول الاستاذ الامام صفوة أئمة الثقافة العالية في عصره وكلهم ممن بلغ في العلم والأدب أطوريه كحفني بك ناصيف والشيخ سيد المرصفي من رجال الأدب القديم ، ومحمود سامي باشا البارودي واسماعيل باشا صبري من مجددي الشعر الحديث ، وابراهيم بك المويلحي وابنه محمد بك المويلحي من الكتاب المجودين الى عشرات أمثالهم من الأدباء والعلماء والقضاة والاجتماعيين والسياسيين أمثال قاسم بك امين وأحمد فتحي زغلول باشا وسعد زغلول باشا وحسن عاصم باشا واحمد حشمت باشا واحمد تيمور باشا في نفر من أساتيذ المدارس العالية ولاسيما جماعة دار العلوم . وكلهم كما قال حافظ في الاستاذ المفتي (يعرف مهر الكلام ومقدار كد الافهام) هؤلاء كانوا لحافظ عشراء ومعلمين وموحين ومنشطين ، وهم من قادة الأفكار في الأمة المصرية ، اما ناشئتها المنورة فما ينقضي عجبها من شعر حافظ كلما رأته موضع إعجاب أولئك الاعلام .

وبدأت شهرة حافظ تعظم بين المصريين لان نفسه كانت تألم للظلم حلّ به أم بغيره ، يحسّ مطالب الشعب ، لأنه يعيش بين ظهريه ، ويستمع لشكواه وبلواه ، وما فتئ منذ تطوع في خدمته ، ينطق بمايفرج عنه كربته ، ويدعوه الى النهوض ، ويشحذ منه العزائم ، يرشده على اطراح سفساف الأمور ، والتذرع بما يبقي عليه ثروته ، ويعيد اليه مجده ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ليستوي شعياً فاضلاً في المدينة الفاضلة . وكان من يشعر شعور حافظ من الشعراء قبل نبوغه قد يقع لأحدهم البيتان والثلاثة في معنى الاصلاح أوالشكوى . اما الشاعر المجدد فأنشأ ينشئ القصائد تلو القصائد .

وكان العقد الذي مضى بين خروجه من الخدمة الى ان عاد اليها (١٩٠١ — ١٩١١) من أخصب ايام شاعرنا انطلق يتفنن في النظم على وجوه جديدة في أبواب الإجتماع والسياسة ، ومصر بل كل مصر لاتعدم الحين بعد الحين نهزة حوادث تفتق لسان الابكم بالكلام ، فكيف برب البلاغة والفصاحة ، يضاف ذلك الى ما في تلك البيئة الغنية من العظات، ومالذلك البلد الطيب الذاهب بفضل السبق بين الاقطار العربية من الموقع الجغرافي المتوسط بين المشرق والمغرب .

عبر كلها الليالي ولكن اين من يفتح الكتاب ويقرا

وكانت الأمة المصرية في تلك الحقبة من الزمن تشتد في بلوغ هدفها الاسمى في الاستقلال ، وتقوى كل يوم في بنيها الدعوة الى الوطنية والقومية ، وكان عهد استتباعها بحريتها في القول والعمل على صورة ما عهدت مثلها في تاريخها ، فكان للشاعر من مطالب أمته موضوع جذاب متسع الاطراف ، اتساع أفق الشاعر الذي توفر على الزهد في موضوعات الشعر القديم، خصوصاً وهو بمأمن مما يعبث بالحرية المدنية والوجدانية ينعم بنعمة حرية القلم واللسان .

وما اقترب مترجمنا من ارباب المقامات العالية الا بالقدر الذي لا يحرق فيه نفسه ، مجتزئاً بما يغنيه عن الفناء فيمن هواهم في الحقيقة الاحتفاظ بسلطانهم ، ولا يرضون عن الشعراء والكتاب الا اذا باعوا منهم الاستقلال الفكري بشيء من حطام الدنيا ومظاهرها الخلابة . ومن كانت الأمة تصفق له ، وعلى رأسها اولئك السادة يناضلون عنه ، لتفرسهم فيه الخير ، يستوي عنده رضا الكبراء وغضبهم . فحافظ اذاً هو وليد النهضة الاخيرة ولسانها الجريء ، ارتبطت مصلحته بمصلحة الأمة منذ عاهد ربة الشعر على الوفاء لها ، فاصبح شاعر مصر الاجتماعي والوطني غير مدافع ، لاينتج الا للادب ، ولغة العرب .

سئل المرحوم اسمعيل صبري باشا شيخ شعراء مصر عن الثلاثة المبرزين من شعراء القطر (شوقي وحافظ ومطران) فقال (شوقي ينظم ، وحافظ يبني، ومطران يبتدع) هذا حكمه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عليهم وهم في الكهولة ، فاي حكم يصدر ياترى وهم في سن الكمال ، يبدعون هذا الابداع ويعيدون بصنيعهم الى شعرنا ما كان له من اشراق الجزالة في القرن الرابع بالبحتري والرضي وابي الطيب وابي تمام .

نعم ان حافظاً في الشعر بناء وأي بناء ، ماعهد عصرنا شاعراً يصقل شعره كصقله قبل ان يخرجه للناس ، ولا كاتباً يطيل النظر في كلامه إطالته ، ولا اديباً اروى منه للاشعار والاخبار ، يسقط على مناجم الأدب فيستخرج منها كنوزها الدفينة . هو بناء مُقدّر يتعذر على احذق النقاد ان يتبين الخلل في تضاعيف نسجه ، يصور فيه حالة عصره وروح اهله وعشيرته ، ويسرهم وعسرهم ، وما ديوان شعره على اختصاره الا صورة ظاهرة للوقائع التي شغلت قلوب اهل جيله وقبيله . وليس في ايقاع ما يوقع على قيثارته من قوافيه وضروبه الا مايفعل في الارواح ، فتترنح له الاشباح غير متعملة ، يشدو به وينوح ، ويطرب ويعجب ، ويهز به اوتار القلوب .

مااستفاضت شهرة حافظ الا لسيره بشعره مع حاجة العصر ، فأثر به هذا التأثير القليل النظير ، واحتظى به هذه الحظوة عند العرب كافة . بيد انه حاول ان تكون له مثل هذه المنزلة في النثر فكتب كتاب ليالي سطيح وعرّب البؤساء لهوغو وخرج بهما بعدا كراه السليقة مستقيمين له كما أراد لا كما يُراد . اخطأهما التوفيق الذي كان يتوقعه من نشرهما ، وجاءت عليهما مسحة من التعمل ، وهذا ماعافه الناس بعد ان ابتلوا قروناً بقراءة دواوين المتكلفين من الناثرين والناظمين . اما كتابه الموجز في علم الاقتصاد الذي نقله الى العربية مع صديقه خليل مطران بك فكان من اجمل مانقله الناقلون في العهد الاخير .

واذا كان حافظ قد تخطاه الحظ في منثوره على الجملة ، فذلك لأن من الموضوعات مانشتد حاجته الى سلاسة في التقرير وسلامة في التعبير ، اكثر من رصف الألفاظ واحكام الجمل . فمن ثم كان حافظ في نثره نحاتاً باهراً لا بناء ماهراً ، ما كتب له على متانته في أجزاء بنائه ان يورث النفوس روعة اذا نظر اليه بمجموعه . والروعة في المبنى تنبعث من روح الباني ولا تتأتى بتعمل واجهاد ، والبلاغة في الاسلوب اكثر ما هي في القوالب وما تعطيه من المعاني .

ولئن عصى بيان حافظ على التبريز في النثر ، فقد كان مطواعاً له اذا حدث وحاضر ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كان يسحر الطبقات المختلفة بما يورد عليهم من احاديثه ومروياته ، ويسقيهم من معين محفوظه الذي لاينضب ، اعذب ماظفر به من كلام القدماء والمحدثين ، وكان بحضور ذهنه ، وغريب بديهته ، على مايندر في الادباء مثله ، يتنادر بكل ذلك بحسب المجالس التي يصير اليها ، رصيناً في الفاظه ومعانيه ، بارعاً في مختاراته ، يردفها ابداً بما يوائمها من حاضر الوقت ، يطرب بها نفس الفرح والمكتئب ، ويود جليسه لو طال مكثه في حضرته يتغنى كالبلبل الغريد ، وقل جداً في كبار الكتاب والشعراء من حيز لهم بيان اللسان كحافظ ، اللهم الا ان كان مايروى من احاديث اناتول فرانس كاتب فرنسا الاكبر الذي سارت بقصصه وافاكيهه الركبان ، واعجبت بمجالسه الرجال والنسوان .

اطلع حافظ على شعر الافرنج بقدر ماواتته ملكته من اللغة الافرنجية ، اطل منها على ادبهم اطلال متسائل . اما وقوفه على شعر العرب فهناك الامتاع ، وهناك الابداع . وفي الحق انا لانعرف في هذا العصر اديباً عربياً جزل قسطه من جيد المحفوظ كما جزل قسط حافظ من استظهار ادب العرب ، ولاغرو فهو حافظ الادب ، ولكل اسم من مسماه نصيب .

كان حافظ يتبسط في احاديثه مع جلسائه ، يلقي على مسامعهم من كل صنف في ساعة ماتجمد حافظة غيره عن ايراده في ايام . يلعب بالعقول والقلوب حتى ينسي سامعيه كل مهم لهم . هو جد طروب ، جد لعوب ، لايحزن الالنقد حبيب ، ولذلك تراه قد جود من وراء الغاية في رثاء من رثاهم من معاصريه ، وهو لايتكلف الندب لانه شئ ممن يحب ويُحب . وقل ان تنقبض نفسه الا اذا حاقت بامته كارثة فيكون في طليعة من يواسيها ، ولا تتهيأ له اسباب القول الا يوم تعرض للقوم كبريات المسائل فتستدعي اشتراكه بطبيعة الحال . وكان لكلامه ابداً موقع من القبول في القلوب ، لانه مؤمن حق الايمان بما يقول .

كان رحمه الله في الغاية من حسن الوفاء مع كل من عرفه ، يتمثل منذ وعى على نفسه الاخلاق الفاضلة والتعاليم السامية ، وتتجلى فيه البطولة وقوة الارادة . ماعهدت فيه كزازة اليد ، ولا خطر بباله جمع المال ، فكان طول حياته كاسباً واهباً ، يسخو سخاء الاغنياء ، وهو في الواقع بائس مقتر عليه ، وربما اخرج من جيبه كل ما يملك من الدراهم فنزل عنه لطالب عطائه لا سيما اذا كان من المتأدبين ، يعطي وهو مغتبط لتلبية الطالب ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقيامه بالواجب ، وان اضطرته الحال بعد ساعة الى ان يقترض ديناراً ليطعم به .

كان حافظ لا يعرف الرياء والمصانعة والدس ، كذلك كان وهو يشكو بؤسه ، وكذلك كان وهو عامل من عمال المعارف موسع عليه في الجملة ، وضعف جسمه فكان في اعوامه الاخيرة لا يعمل الا مضطراً ساعة من نهار ، اما فكره ففي شغل شاغل ابداً بايجاد اللفظ الانيق للمعنى البديع . وآضت به الحال بأخرة ان لا يختلف الى مقر عمله الا يوم قبض الراتب ثم يعود ادراجه . وكان لا يتأنق في لباسه ولكنه يتأنق كثيراً في طعامه وشرابه وتدخينه .

هذا ياسادتي حافظ وهذه سيرته وسيره وادبه . لاجرم انه رجل حس عال ، عاش في ألم وأمل . ألمه لما أصاب قومه من الانحطاط ، وأمله ان يرى العرب يقالون من جدهم العاثر ويستعيدون مجدهم الغابر ، وما اصطنع الشعر الافتنة بجماله ، فكان صناعة له استخدمها في أفضل المروآت ، وأنبل الغايات . هو غريب في بابه ، منقطع القرين بين أترابه . ما تهنأ الحياة كثيراً ، وما عرف سعادة البيوت ، وعطف البنين ، عاش للمجتمع ، وشقي ليسعد الناس وما خلف الا هذا الشعر الخالد ، الذي تفنى الايام ولا تبلى جدته ، وما أجدرنا أن نخاطبه وقد هدأ ذاك العصب الحساس ، وسكت ذاك الجرس الفاتن ، وهو رهين حفرته يقول أستاذه اسماعيل صبري في راحة القبر :

ان سئمت الحياة فارجع الى الار ض تنم آمناً من الأوصاب
تلك أم أحنى عليك من الأُ م التي خلفتك للأتعاب
لا تخف فالممات ليس بماح منك الا ما تشتكي من عذاب
كل ميت باق وان خالف العهـ ـد وان ماأُص في غضون الكتاب
وحياة المرء اغتراب فان ما ت فقد عاد سالماً للتراب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net